

دور فن النصيحة في التأصيل لثقافة حوارية نخبوية هادفة: مقاربة في آليات النصح وطرق
الاقناع

*The role of advice in establishing an elitist dialogue culture, Search
in the mechanisms of advice and methods of persuasion.*

البشير بوقاعدة. أستاذ محاضر قسم أ. جامعة محمد لمين دباغين سطيف. الجزائر.

¹bougadabachir@yahoo.com

تاريخ النشر: 2020-06-10

تاريخ المراجعة: 2020-05-13

تاريخ استلام المقال: 2020-05-03

ملخص:

ترصد هذه الورقة البحثية بالدراسة والتحليل دور النصيحة ضمن المحيط العلمي-النخبوي في تنمية القدرة على اقناع المنصوح على التخلي عن الآراء الزائفة والأفكار المجانبة للصواب في ثوب حوار علمي هادف. وتكمن أهميتها في كونها تكشف ما ينبغي أن يتحلى به الناصح من شروط لبلوغ غاية النصح على متن روح الحوار الهادف؛ لإرغام منصوحه بقوة الفكرة ومشروعية الدليل ومتانة الطرح على الانصياع المطلق لقبول الحقيقة العلمية. هذا ويسعى صاحب المقال أيضا إلى ملامسة مدى نجاعة الفعل النصحي في دغدغة أفكار الآخر، وتوجيه ردود فعله في المسار السليم الذي يثير النقاش ويزيد من فعاليته، فيستفيد الناصح والمنصوح معا. بالإضافة إلى البحث في الآليات الكفيلة بالتحكم في مجريات النقاش النصحي ضمن مساره الطبيعي، وإدارة تفاصيله على النسق الحوارية التواصلية العلمي الهادف.

الكلمات المفتاحية: النصيحة، الدور، الآليات، الآراء، الحوار.

Abstract :

This research paper deals with the role of advice in developing the convincing ability and the ability to act purposefully in an objective conversation, obeying authentically all the rules of advice system. As the owner of the article seeks also to succeed in agitating the others ideas due to the advice act, and directing his/ her reaction towards the right path where the discussion is fruitful and influential, then the interest would be for both the advisor and the advised person. In addition to looking for other techniques with which the advice speech could be controlled in its details, respecting the chronology of the purposeful scientific communicative dialogue.

Keywords: advice, the role, techniques, obeying, dialogue.

مقدمة:

تحتل النصيحة بين عناصر النخب العلمية موضعاً محورياً في المسار الحياتي لأي مجموعة بشرية ضاقت مساحتها العددية أو اتسعت، ذلك أنّ النصيح: يُشكّل فعلاً إيجابياً لتوجيه سلوكيات الأفراد نحو برّ الأمان القبيح، ويعدّ الطريق الصائب والوجهة السديدة لنسج مادة تواصلية إيجابية، وجسور علائقية هادفة، وقيم حوارية متميزة، ونمط تعاوني متين وهادف ضمن الحقل الاجتماعي. كما أنّ الفعل النصحي والسلوك التقويي المنشود على كاهله من شأنه أنّ يُقوّم الأفعال التي تجاوزت الحدود إذا ما تجاوب منهجه مع الأطر الناطمة لقيمة النصيحة المثلى واستجاب للمنظومة القيمية المؤطرة لمسارها ومنهجها؛ ذلك أنّ متانة نسج الروابط الانسانية يحتل مكانة سامية في حقل المنظومة القيمية التي تهتدي بالنص الشرعي وتمثل لمبادئه، والتي ينشدها العقل السليم ويدعو إليها.

ومن ثمّ كان من الأهمية بمكان الالتزام الدقيق بمنظور النص الشرعي في سلوك سبيل النصيح؛ بحيث يُعرض على القصاص العقلي ويُستجوب من طرف النص الشرعي. وأنّ ركوب سفينة النصيحة في مساعي ملامسة الغاية النبيلة من طرف من نهج سبيلها، يقتضي الإدراك المثالي لتقاليد الفن النصحي، والتقيّد الصارم بألياته وأنظمتها، ومواكبة تطوراتها الخاضعة لمسافة الأمان ومساحة الفائدة، على اعتبار حساسية مادتها، وخطورة عواقبها إن حاد قطارها عن سكتها وفقد قائده بوصله وجهته.

إنّ التشبّث بحبل النصيحة في مضمارها الصحيح، لا ريب هو السير بسلاسة لبناء جسم متكامل من نسج العلاقات المتينة، وسبيل قويم لإنتاج مادة تواصلية هادفة، وتحديد منهج حوارى بناءً، كما أنّه قوة قيمية كفيلة بتفكيك مظاهر الصدام العنيف في الرؤى وهدم أوكار الاختلاف المشين في الأفكار، وهو كذلك المصدر الحيوي المُعين على تضييد جروح الفرقة الفكرية والاجتماعية وتطبيب مظاهر التصادم ومعالجتها.

ثمّ إنّ لفنّ النصيحة في حقيقة الأمر، رجاله وأهله، فمتى كانت في محلها، وفي ثوبها المثالي وحسب المقاس كان نفعها عظيماً، وكلّما تمّ مراعاة طبيعة الداء وصياغة الدواء الشافي بإحكام كان السبيل إلى استئصال مرض الخلاف أيسر وبلوغ المراد ممكن. أمّا إذا حدث أيّ اضطراب وخلل في منظومة الأعراف والتقاليد والقوانين المفصحة عن منظومتها والمواد المتبعة في سلوكها، أسهم

سبيلها في مضاعفة حدّة التشنج واتسعت هوّة الخلاف والاختلاف، وانقطع حبل الوصال والتواصل، وانهدّ عرش العلاقات وتضعضع.

تأسيساً على هذا، نشير إلى أنّ أهمية هذه الدراسة تكمن في كونها تركز على جزئية دقيقة تتعلق بدراسة فن النصيحة ضمن شريحة النخبة العلمية؛ تلك التي غالباً ما تحتضنها الفضاءات العلمية من جامعات ومراكز بحث ومؤسسات علمية وثقافية وتعليمية، ويُدير مجرياتها الأساتذة والباحثون والمفكرون والمتقنون وطلبة العلم ورواده، ذلك أنّ هذا الحقل البحثي على الرغم ممّا أنتجه أهل القلم في بحره من أبحاث فإنّ جوانب منه لا تزال تحتاج إلى تسليط الضوء على حيثياتها. مع الإشارة إلى أنّ مقصدنا ينحصر بشكل مركّز في مسار النصيحة العلمية-الثقافية، ولئن كنّا قد استنجدنا ببعض مواد الفعل النصحي الذي يمكن أن يندرج ضمن النصيحة الدينية فذلك من باب ما لا يتمّ الأمر إلا به، وليس خوضاً في مسارها؛ ذلك أنّها حظيت باهتمام وافر من أهل الاختصاص في مسعى منهم لبيان مقوماتها وتحديد شروطها وأساسياتها.

وحقّ ينبسط الأمر بين أيدينا أكثر وتنجلي مضمراته بشكل أوسع، حريّ بنا الإفصاح عن طبيعة إشكالية هذه الدراسة الرئيسة، ذلك أنّنا نروم معالجة إشكالية أهمية النصيحة -بما انطوت عليه من فنون وطرائق وآداب وتقاليد- في توجيه الحوار الوجهة السليمة فيما يخدم آليات التواصل النافع، ويثري النقاش العلمي المثمر، ويُحفّز على تفعيل التواصل الثقافي بين العناصر الفاعلة في المجتمع أو نخبته .

ففيما تتجلى طبيعة الآليات الكفيلة بتوجيه مجريات حوار نصحي على مسار مسافة زمنية تتغذى بالتفاعل الإيجابي والحوار المثمر والتبادل الفكري، والقابلية لرأي الآخر، وتطبيق هاجس الأنا؟ وإلى أي مدى تتعاطى أطراف النقاش -تحت جناحي العملية النصحية- إيجابياً مع مجرياته وتتقيد بألياته ؟

أما بالنسبة لعناصر الدراسة الرئيسة، فتضطلع بمعالجة العناصر التالية:

1. النصيحة في خدمة النقاش.
2. دعائم المسار الحواري-النصحي.
3. جسور الوصال بين جمالية الفعل النصحي وفعالية النشاط الحواري.

1. النصيحة في خدمة النقاش: قراءة في الأطر الناظمة لمساحة النصيحة:

ما دامت النصيحة تفقد فعاليتها إذا ألبست ثوبا على غير مقاسها أو شُربت كدواء على غير الوصف المحدّد له، فإنّ التقيّد بالقوانين المؤطرة لحدودها والناطقة بتوازن أركانها، يسمح بافتراض أرضية علمية تعين على ادارة سليمة لمجريات نقاش علمي تحت سقف الفعل النصحي. ولعلّ من بين أهمّ ما يمكن أن يعين على ذلك، ما يأتي ذكره في المحطات البحثية الموالية:

1.1. تحديد الهدف:

لا يختلف اثنان في أنّ الانطلاقة السليمة هي التي ترتكز على أسس متينة، يكون في طليعتها: تحديد الهدف، الذي يُستشرف على ضوئه جني ثمار المجهود أو ملامسة الغاية من المشروع المسطور، وكذلك هو شأن من يخوض غمار العملية النصحية ضمن المضمار الثقافي والعلمي أو بين شخصيتين علميتين تديران حوارا علميا-نصحيًا. فتحديد الهدف: هو قفزة نوعية وشوط معتبر في رسم معالم أرضية نقاشية حبلى بالنتائج الايجابية.

ثمّ إنّّه في هذا السياق، ينبغي أن يكون الهدف سليما والغاية بريئة والمسعى نبيل، وإلا فمهما تحدّد الهدف بدقة لن يصطبغ الحوار إلا بصبغة الصراع والجدال العقيم أو يظلّ مشهدا من مشاهد معركة كلامية هزيلة. (ابن خلدون عبد الرحمن، 2005، ص.372)

وعليه، فإنّ من أسوء الغايات، أن تكون هي محاسبة الناس والوقوف على غلطاتهم وتعرية هفواتهم. فهذا المسعى مذموم، ونقاشه حتى وإن كان قد يغذي الفكر ويدغدغ العقل ويستفزّه، فإنّه لا ريب، سيخرج الفؤاد ويزعزع بنیان العلاقات المجتمعية ويعصف بتماسكها، وهذا الصنيع أشبه باللوم وليس حوارا هادفا.

ينير دربنا في هذا السياق، صاحب كتاب "فن التعامل مع الناس"، حين يقول: "فاللوم مؤلم للغاية يجعل الانسان يقف مدافعا عن نفسه يسبق مبررات مواقفه للحفاظ على كبريائه وصورته أمام نفسه والآخرين... واللوم شرارة خطيرة من شأنها أن تسبب انفجارا للكبرياء". (دايل كارنيغي، 2010، ص.13).

تأتي غاية الانتقاد هي الأخرى، لتتزع ثوب السلامة الحوارية من ظهر النقاش النصحي وتكسوه بثوب لا يستر عيوبه، ذلك أنّ الانتقاد خصوصا اللاذع، يهدم بنیان الحوار، ويجرح المشاعر، فيحيّد الحوار عن مساره السليم.

فإذا كان الحوار آلية من آليات الفعل النصحي، فإنّه ينبغي أن تُدار مجرياته بين طرفيه أو أطرافه بإيجابية وفاعلية، والتي من أقوى شروطها سلامة الهدف ودقّته. وهو الطرح الذي تتبناه الدراسة المختصة في هذا المجال، ولذلك قيل: "حتى تترك فيمن حولك انطباعات جيدة سواء في

مكان العمل، أو حفل أو أي نوع من المقابلات، فإنه يجب عليك أن تتخذ موقفا ايجابيا". (روزالي ماجيو، 2009، ص.5)

قد يكون لمقصد الفرد ورغبته في أن يكون شيئا مذكورا حافزا من المحفزات على العمل والإقبال عليه، كارنيغي (2010، ص.23) لكن هذا الفعل وإن كان قد يندرج في خانة الايجابية في منى من مناحيه، فإن ذلك لا يعني غض الطرف عن طبيعة المقصد والتحري في مادته لضبط مساره في الوجهة المحمودة تلافيا لأي انزلاق لا يحمد عقباه، لذلك لابد من تحري حسن النية وسلامة القصد في مسعى الفعل النصحي وركوب سفينته. (اسماعيل البخاري، 1979، ص.35؛ يحيى النووي، ص.7؛ شهاب الدين البرنسي، 1993، ص.17) فالرغبة في البروز وإظهار الذات كدافع وحافز لا تكفي كغاية نبيلة؛ ذلك أن العبرة بأهمية المشروع والوعي بذلك والإدراك التام لحجم المسؤولية وثقل أعبائها وحسن أداء المهمة، بالإضافة إلى الصدق مع الذات في تحقيق النفع العام، والتحلي بروح التفاني في العمل والإخلاص فيه.

وعليه فالغاية كلما كانت سليمة كلما قادت إلى نتائج ايجابية وعواقب محمودة، وكلما شابها الغموض أو لبست ثوبا غير محمود، قادت لا محالة إلى نتائج سلبية وعواقب وخيمة. وهو ما يوافق الرأي الذي مفاده: أن مراد الانسان العاقل من المناقشة والحوار (أحمد خليفة، 2008، ص.19) هو: الوصول للحق، كما قال الامام الشافعي: "ما ناظرت أحدا إلا ولم أبال بين الحق على لساني أو لسانه" : أي: "لم يكن له قصد إلا في ظهور الحق ولو كان على لسان غيره ممن يناظره أو يخالفه". (سعد الشثري، 2006، ص.15)

2.1. الكفاءة مفتاح الفلاح:

تحتل الدراية بقوانين النصيحة وآليات خوض مسار حوارها وتفاصيل حياتها مع المنصوح، مكانة عظيمة في المنظومة النصحية؛ فهي السلاح العلمي للسير وفق خطة ثابتة ورسنية وقيادة حوار آمن ونقاش سليم لتحقيق الغاية. (مسلم النيسابوري، 2006، 270) ومن أهم ما ينبغي أن تنطوي عليه شخصية المحاور أو الناصح حتى يمكنه أن يرتدي ثوب النصيحة في حلة ناعمة: اللباقة والكياسة والتفهم والتسامح. كارنيغي (2010، ص.20)

بالإضافة إلى عدم التسرع، حيث يلفت انتباهنا هنا، ما ذكره صاحب كتاب "فن التعامل مع الناس" (عماري يس، 2017، ص.2)، في خضم معالجته لفنون التعامل وسلوك التخاطب والتحاور، حيث كان يدعم آراءه من حين لآخر ويقوّيها بشواهد تاريخية، وكان ممّا راق لنا أن نسوقه في هذا المضمار تطعيما لمسعى ذمّ التسرع، ما ذكره بأن: "على المرء أن يسيطر على نفسه، وأن يكون متفهما ومتسامحا" الشثري (2006، ص.17)، ثمّ يُقوّي طرحة بمقوله: "إنّ الله لا يحاسب الانسان إلا بعد أن ينتهي أجله" فلماذا نتسرع أنا وأنت في محاسبة الناس؟". كارنيغي (2010، ص.20)

كما أنّ لإظهار المحبة والرغبة في التعاون مع الطرف المنصوح مفعولها هي الأخرى في تثمين الحوار وإثرائه، ذلك أنّه ينبغي أن يرمي كل طرف من أطراف الحوار إلى نفع محاوره والاهتداء إلى الطريق السليم لتحقيق ذلك النفع العلمي-النصيحي وملاسته. الشثري (2006، ص.23)

هذا وينبغي على من رام أن يهتدي منصوحه إلى الحقيقة العلمية والفكرة الصائبة والطرح البناء، أن يستنكف عن الغضب ويحرص أن يخلو سلوكه منه؛ ذلك أنّ الغضب يعصف باستقرار موازين الحوار ويهدم بنيانه ويوجّهه وجهة غير محمودّة، وقد حثّنا الشرع الحنيف على تجنّب الغضب والحرص المستديم على ذلك، كما هو ثابت في نصوص القرآن والسنة النبوية.

كما أنّه من الضروري في مضمار النصيحة ومجريات فصولها، الابتعاد المطلق عن أي سلوك من شأنه أن يوحي لمنصوحه أو محاوره بأنّ ناصحه يسخر منه أو يُقلّل من شأنه، وكذا ضرورة تجنّب الاعجاب بالنفس وتزكيتها على حساب الحق، لما فيه من بلاء الاحتقار للمنصوح والتكبر عليه والغرور. وفي المقابل من الجميل التحلّي بفضائل الأخلاق ومحاسن المعاملة، والاجتهاد في إدارة مجريات النقاش وفصول النصيحة إدارة مثلى وفق مسار علمي منتظم، يُتبادل فيه الرأي بطريقة محكمة، لا يقطع أحدهما الآخر ولا يأخذ منه الكلمة قبل إكماله الفكرة، مع ضرورة حسن الاستماع والمخاطبة المتبادل بينهما. (شمس الدين ابن قيم الجوزية، 2003، ص.381)

3.1. نفسية المنصوح في النقاش:

إنّ من بين أبرز العوامل التي ينبغي أن تُراعى في مسار العملية النصحية بين الأطراف النخبوية، ما تعلقّ بنفسية الفرد المراد نصحه أو عقد جلسة حوارية معه لإقناعه بأمر معين أو تغيير فكرة أصر على الاعتقاد بها على الرغم من مجانبتها للصواب، لسوء تقدير منه للموقف أو سوء فهم للحدث أو قراءة خاطئة منه له، ذلك أنّ مراعاة ظرفية نفسيته وطبيعته من شأنه أن يقود إلى دفعه لقبالية التلقّي من طرف الناصح. فالمعلوم، أنّ أي شخص مثقف -على سبيل المثال- ليس من السهل أن تنحني قناعاته أمام رأي -حتى ولو كان صحيحاً أو أقوى من الرأي الذي يعتقده ومقتنع به- إذا صدر فعل النصيح من جهة أدنى منه مستوى على اعتبار الشهادة العلمية أو الوظيفة أو السن أو الأقدمية والخبرة في المجال الذي يفترشه. ذلك أنّه قد يشعر بحساسية تجاه النشاط النصحي الذي يقوده الناصح، كما قد يقطع مسار مجرياتها في أولى محطاته أو حتى في بدايته. ويحسن بنا في هذا المسعى وقصد الرفع من سقيفة الوضوح، أن نتشبّث بالرأي القائل: "فليس هناك أي شيء يقتل الطموح مثل توجيه النقد لمن هم في مستوى أعلى". كارنيغي (2010، ص28)

لذلك فالأجدر أن يتمّ التمهيد للأمر في محطة حوارية سابقة لحدث النصيحة، يسعى في خضمها الناصح إلى إبراز عضلاته العلمية في الموضوع محل النصيح بالقدر الذي يرفع من شأنه في

عين منصوحه، ويدرك هذا الأخير أنّه يحاور شخصا متمكنا وله باع في الموضوع الذي أثير للنقاش. فإذا ترسّم ذلك في مخيلة المنصوح، شرع الناصح في كشف موضوع النصح أو النقاش، وسار في إدارة مجرياته.

ولعلّه ذلك الذي اصطلح عليه كارنيغي (2010، ص23) بترغيب الشخص في العمل، حتى أنّه جعله بمثابة السر الأعظم لإدارة معاملاته مع الناس، ذلك أنّه على حدّ قوله لا يستطيع الانسان أن يجعل شخصا ما يقبل على عمل ما، إلّا إذا استطاع فقط ترغيب ذلك الشخص في ذلك العمل. حيث يختار الألفاظ المناسبة الطيبة المحببة إلى النفوس، "بحيث يرد كلامه على حدّ تعبير الشثري (2006، ص37) إلى نفس مستمعه مباشرة، ولا يورث ذلك صدا له عن تقبل الحق". ثمّ إنّ من أفضل أسرار النجاح في هذا المسعى، أن يدرك المنصوح أو الطرف الثاني من أطراف الحوار العلمي، أنّ ناصحة لا يبتغي من وراء نقاشه أو نصيحته فائدة لنفسه، وإنّما اشعاره بأنّه هو المستفيد وهو المُعطى له والمنفعة.

ولا تقلّ أهمية أن يشعر الطرف المنصوح بأهميته في حلبة النقاش ومساحة النصيحة في مسعى انجاحها وتحقيق أهدافها، وهو لا ريب أحد قواعد العلاقات الانسانية المتميزة الفاعلة، ويلخص كارنيغي (2010، ص58) ذلك في قوله: "لنمنح الآخرين ما نريد حتى يمنحونا إياه" وقوله: "اسبغ التقدير على الشخص الآخر واجعله يشعر بأهميته".

إنّ السعي لإثبات أنّ الآخر على خطأ في ارتداء فكرة أو القناعة برؤية على هشاشتها، والقول لذلك الشخص: أنت على خطأ، هو طريق محفوف بالمخاطر، إذ لا ريب أنّ مصارحة الشخص بأنّه مخطئ، غالبا ما ننتظر منه ردّا غير طبيعي أو لا نجد من يوافقنا على ذلك، كما أنّه ليس من السهولة بمكان أن نقف على فرد يسلم أو يقرّ بأنه على خطأ دون رد فعل أو مقاومة فكرية؛ فالمنصوح والمحاور توجّه ضربة مباشرة إلى ذكائه وحكمته، واعتارزه بنفسه إذا قيل له أنت مخطئ. ومن ثمّ، فالأجدر البحث عن الكلمات والألفاظ المناسبة لإشعاره بالخطأ دون شعوره بأن كبرياءه قد جرح أو خدش وأنّ مكانته الفكرية أو العلمية وحتى النفسية قد مُسّت وطعن فيها، مع ضرورة احترام آرائه وأخذها بعين الاعتبار بعد وضعها على الميزان النصي أو القصاص العقلي.

لذلك يُنصح في هذا السياق، أن لا يُبدأ حديث النصيحة بالقول: "سأبرهن على كذا وكذا، فإنّ هذا القول يعادل قولك: "أنا أذكى منك"، كارنيغي (2010، ص75) ولا تعلن أنّك الأذكى مسبقا وافعل ذلك بكياسة وفي لباقة وفي صمت دون أن يشعر أحد"، وذلك من قبيل: أظن أن لي رأيا آخر، وربما أكون مخطئا، ودعنا نتحرى الوقائع، ونحو ذلك، حينها لا أحد يستطيع أن يعترض على قولك أو رأيك. وذلك ما تقوّيه مقولة "ودرو ولسن": "إذا جنتي معلنا المبارزة، أعدك أن قبضتي

ستكون أقوى من قبضتك، أمّا إذا جئت إليّ وقلت: دعنا نتبادل الرأي، فحتى إن اختلفنا، فلن نلبث أن نجد أننا نتفق في الكثير". كارنيغي (2010، ص76)

أمّا إذا كان الناصح أعلى منزلة علمية أو فكرية وثقافية من المنصوح، فليس ذلك ذريعة للتطاول عليه، وإنّما يبقى التواضع والتقيد بشرط النقاش هو الحل الأنسب لحلّ المعضلة أو مشكلة النقاش واثرائها. الشثري (2006، ص20)

وهو الطرح الذي تدعمه مقوله: "الرجل العاقل هو الذي إذا أراد أن يعلو على الناس وضع نفسه أسفلهم، وإذا شاء أن يكون في مقدمتهم، جعل نفسه خلفهم، ألا تنظر إلى البحار والأنهار كيف يصب فيها المياه من مئات الترع والجداول التي تعلوها". كارنيغي (2010، ص100)

4.1. محطات النقاش النصحي ومساراته:

من بين أهم ما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في أطوار العملية النصحية الحوارية: هو احترام منازلها والتوقف عند محطاتها، وإيلاء ذلك عناية فائقة، حتى يُظفر بالفائدة وتعمّ ثمارها على أطرافه.

في هذا المضمار ينبغي التماشي أو مسايرة تطورات الحوار والنقاش، إذا ينبغي -على سبيل المثال لا الحصر- أن يكبح الناصح حين يلمس بوادر الانفعال في الطرف الآخر، وأن يتراجع قليلاً ويهدأ الموقف، وذلك قبل أن تتأجج نار انفعاله ويصعب إخمادها بلغة الحوار فينهّد ويتهدّم ما تمّ بناؤه إلى غاية حدود تلك المحطة، فإذا أمسك بزمام الأمور واستعادت مسيرة النقاش عافيتها، باشر حوارها بلغة الحوار المعهودة استكمالاً لمجرياته.

كما أنّ من الحلول الآنية التي يجدر بالناصر أن يهتدي إليها إذا لمس من منصوحه نوعاً من الانفعال أو سلوكاً منه يقود للخروج من مضمار النقاش أو مقاومة فكرية عنيفة أو طفيقة، أن ينعطف عن موطن القول إلى زوايا أخرى آمنة يستنجد بها مؤقتاً؛ يكون نقاشها تلطيفاً للجو أو في شكل استراحة نقاشية، ثم سرعان ما يعود إلى مضماره الرئيس بعدما يلمس الاستعداد أو نقول قابلية المنصوح أو طرف النقاش الآخر للاستمرار في الحوار والنقاش.

2. دعائم المسار الحوارية-النصحي:

يتطعم مسار العملية النصحية بجملة من الدعائم، يحسن بنا في هذه الورقة البحثية أن نحصرها في النقاط التالية:

1.2. الثناء المخلص:

الثناء مادة حيوية هامة تمدّ مجريات النقاش بشحنات قوية تزيد في عمره وتوسع من أفقه، كما تُنمي قابلية الطرف الآخر على التقبل والاقتران من زاوية، والعتاء وعدم الفرار إلى زوايا الحجج الواهية والمسوغات الضعيفة من جانب آخر.

ولعلنا لم نجانب الصواب إن قلنا أنه لذلك قيل: "أنَّ الطريقة المثلى للحصول على أفضل ما في الانسان هي: الثناء" دون أن تنتظر الثناء. كارنيغي (2010، ص28) لأنه كما يقال: الاخلاص وحب الثناء لا يجتمعان، وبه نجد المسلك القويم إلى قلب المخاطب. (شمس الدين ابن قيم الجوزية، 1987، ص.205)

أما من أسهل السبل إلى ذلك: فهو أن تجزل الثناء -خصوصا الثناء المخلص- والمديح إليه، وليس شيء يقتل الطموح "مثل توجيه النقد لمن هم في مستوى أعلى؛ ذلك أنَّ "الكثيرين من الناس يشعرون بعذاب الضمير إذا ما تركوا عائلاتهم أو مستخدميهم من دون طعام طيلة ستة أيام، ولكن هذا الضمير لا يتحرك إذا تركوهم لمدة كبيرة دون منحهم الثناء المخلص الذي يبحثون عنه مثلما يبحثون عن الغذاء". وأنه من الجميل عدم الاقتصار على التفكير في النفس فقط وإنما ينبغي أن نعدّد الصفات الطيبة في كل انسان نقابله ونمنحه الثناء الصادق والمخلص، ولما لا نكون حتى مبدّرين في ثنائنا على غيرها، أسخياء في امتداحهم، حتى يحفظ الناس كلماتنا ويذكرونها طيلة حياتهم حتى بعد أن ننساها نحن. كارنيغي (2010، ص32)

ثم إنَّ سرَّ النجاح في ذلك كما قيل: أن يُدرك الشخص أو المُحاور بأنَّ مُحاوره صادق في ثنائته عليه ومديحه؛ وهو ما أُصطلح عليه "بالمديح الصادق"، لأنّه لو اكتشف المنصوح ضمن مجريات عملية النصيح أنَّ ناصحه غير صادق، فإنَّ ذلك ايدان بنهايتها قبل النهاية إن لم نقل قبل البداية. وحتى تتجلّى الرؤية أكثر على ضوء ما ساقه ماجيو (2009، ص.33)، يحسن بنا أن نورد مثالا يفصح عن أحد الطرق السليمة لجعل المنصوح يُصدّق ثنائنا عليه ومدحنا إياه، إذ يقول: "إذا أخبرت شخصا ما بأنه طاه ماهر فلن يصدق كلامك، فهو يعرف أن هناك مئات من الطهارة يتمتعون بكفاءة تفوقه بكثير. ولكن أخبره بأنك تتناول فطيرة اللحم التي يعدّها ثلاث مرات في اليوم، وسوف يصدّقك".

وعليه، فالمدح والثناء على الغير، يحتاج إلى وصفة أو خلطة توضع معه حتى يصدقه الممدوح أو المثني عليه، فالناصح يعلم أنه يخاطب شخصية مثقفة و رجل علم، وليس من الحكمة أن نصدّق أنّه سيصدق أو ينشر صدره بسهولة لمدحنا وثنائنا عليه، ولكن إذا أحسنّا طريقة التبليغ وزينا ثوبها بإحكام وأحدقناها بسياج الصدق، فإنّها لا محالة تؤثّر أكلها وتفعّل فعلتها.

2.2. التشجيع:

من أسرار نجاح النقاش في خضم العملية النصحية وإدارة مجرياته في صورة راقية وبأدوات خدومة، أن يستعين الناصح أو المحاور، بمعول التشجيع؛ من خلال توظيف أدواته وتسخيرها وحسن توظيفها.

فحسب ما يذهب إليه المنظرين لفنون التعامل مع الناس وأساليب الحوار وآلياته، أنَّ الانسان بقدر ما هو في حاجة إلى الطعام والماء تلبية لحاجاته الغريزية-البيولوجية، بقدر ما نفسه في حاجة ماسة أيضا إلى التشجيع الصادق والتقدير الخالص والمدح النقي، الذي يغذي عزة تلك النفس ويظل في مخيال صاحبها لسنوات طوال، كما يشعرها بالعطش واللهفة لتبادل النقاش المثمر الهادف والإقدام عليه. كارنيغي (2010، ص28)

3.2. الطعم الجيد:

ليس بالمعنى الفعلي يمكن أن ننظر إلى من نروم توجيه النصح إليه بكونه صيدا نريد الظفر به، لكن قد نعتبر الفكرة التي نصبو إلى تغييرها في مخيلته أو معتقده وتفكيره بمثابة الصيد الذي متى أحسننا اختيار الطعم لاصطياده، أمكننا ملامسة الغاية أو الاقتراب منها. نعم إنَّ حسن تشخيص الداء هو نصف الشفاء، وصياغة الدواء المناسب تمام الشفاء.

لذلك فإنَّ الاحاطة بمضمون الفكرة محل النقاش أو موضع النصيحة، وتقليبها الجيد وعرضها الممتاز على الأدلة العقلية أو النصوص الشرعية، هي خطوة جدَّ ايجابية للإقلاع في المسار النصحي على بيئة تامة ورؤية واضحة للوصول إلى سقف الحقيقة المراد ملامستها.

إنَّ من الطرائق التي تُيسِّر هذا المسعى والتأثير على الشخص المراد حوارهِ في ثوب النصيحة، أن نجعله يرغب في قبول النصيحة أو يريدُها ويمدِّ يد العون لتغيير فكرته بتوجيه من الناصح واستمالة منه وإرشاد منه للقناعة بهذا السلوك والرغبة فيه.

ومصادق ذلك في ما نعتقد، ما أورده صاحب كتاب "فن التعامل مع الناس" في قوله: "كل عمل مصدره رغبة كامنة في النفس، وأفضل نصيحة للذين يعملون بإقناع الناس في العمل أو البيت أو المدرسة أو في السياسة هي أولاً تخلق في الشخص الآخر رغبة جامحة في أن يفعل ما تريد، فمن يستطيع ذلك يمتلك الدنيا، ومن لم يستطع يسير الطريق بمفرده". الشثري (2006، ص22)

يضاف إلى ما سبق، أنَّ من مظاهر الطعم الجيد أن تجعل المنصوح يثق في الناصح ويرغب في النقاش، وذلك حين يحسن الناصح اختيار الألفاظ الخاصة بالنقاش؛ فلا تكون قابلة للتأويل أو تحمل أكثر من دلالة، أو لا يوافق اللفظ الدلالة والقصد المعنى.

كما أنَّ من الطرائق المجدية لدغدغة أفكار الطرف الآخر في مسار وفصول النصيحة، أن نوهم المنصوح بأنَّ الكلام ليس موجهاً إليه وإنَّما يُوجه لغيره، أو ما يمكن أن نصلح عليه: بأننا نوجه نصحنَا للفكرة وليس للشخص، حتى نجره دون دراية مبدئية لخوض غمار النقاش والمشاركة في اثراء فصول النصيحة. ودعنا نقول أنَّنا نقتدي بسيرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) في مجال تقديم النصيحة، ذلك أنَّه كان حين يوجه نصيحة لا يقصد بها شخصا بعينه وإنَّما يتكلَّم على ضمير الجماعة حتى وإن كان السلوك المراد تغييره بفعل النصح قد صدر من شخص واحد، إذ كان

يقول: ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا دون أن يحدّد الشخص بعينه أو يشير إليه حتى ولو كان حاضره في مجلس النصيحة.

4.2. أن تثق بأنك على حق:

تأتي الثقة في النفس واليقين بمستويات الامكانيات العقلية والجدالية والفكرية الذاتية في طليعة المقومات الناعمة لجلسة نصيحة حوارية-نقاشية مثمرة، ذلك أنّ خوض غمار نقاش غير متكافئ المستوى بين الخزانيتين الفكرية لطرفي العملية النصيحة، هو التنبؤ المبدئي بانتصار الأقوى مستوى فكريا حتى ولو كان المنصوح، وذلك طبعا في مساحة أو حقل النصيحة.

إنّ الثقة في النفس هي أحد أحجار الزاوية والركائز المتينة التي تقوم عليها عملية النصح وتنسبط عليها عروش الحوار وأبنية النقاش، وأن التردد والارتباك في مسارها يؤدي إلى هلاك الفكرة وتدميرها في وسط طريق الحوار أو في بدايته أو عند نهايته.

5.2. مخاطبة الدواعي النبيلة في نفسه:

يقول المنظرون: إذا أردت أن تغير من طباع الناس، فيجب عليك "أن تتوسل إلى الدوافع النبيلة في نفوسهم". كارنيغي (2010، ص103) ثمّ إنّ من بين أهم ما يمكن أن يضاف إلى حظيرة العوامل الداعمة لنجاح مسار عملية النصيحة وملامسة لأهدافها، ما نوردته في النقاط التالية:

- تجنّب نقاط الاختلاف مع الطرف المنصوح، والتأكيد على النقاط والمحاور المتفق عليها والتركيز عليها، حتى إذا تحكّم في زمام الأمر، أشار من حين لآخر إلى نقطة مختلف فيها وسعى لإثرائها بالنقاش والتحليل، مُتَحَيِّنا في ذلك الوقت المناسب والطرف الأنسب.
- لا تفرض أفكارك على الآخرين بالقوة وإنّما افرضها عليهم بقوة الفكرة، امثالا لقوله تعالى: (وَإِذْ لَهُمْ بِالْبَيْتِ هِيَ أَحْسَنُ) . (سورة النحل، الآية: 125)
- لا تيّأس وأنت تدبر عجلة النصيحة وقطار الحوار، حتى ييأس المقاوم ويستسلم أمام قوة الحجة وسلطان الدليل، الشثري (2006، ص.32) إذ لا أدلّ على صدق القول وقوته من البرهان والدليل القاطع، كما قال تعالى: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . (سورة البقرة، الآية: 111)
- التعاون المثمر وإدارة ثنائية مجريات مقابلة النصيحة، وليس الانفراد بأشواطها على حساب الطرف المنصوح.
- تطبيق مبدأ الاحترام والاعتراف المتبادل بالأخطاء أو مواطن الاصابة والردود الايجابية. خليفة (2008، ص.28)
- عدم التعصب للرأي والانطواء في زاوية الفكرة والانحصار عندها حتى ولو كانت خاطئة، أو الانحياز إليها على غير بينة. (ولي الله الدهلوي، 1986، ص.5)

- اتقان لغة الجسد، إذ ينبغي أن تطابق اللغة التي ينطق بها الجسد لغة اللسان، فالتوفيق بينهما ضمن المسار الايجابي، هو أحد أركان عرش النصيحة المثالية. ومن الأمثلة المُجَلِّية لطبيعة لغة الجسد: أن تُحدث الشخص وأنت تعبت بخاتمك أو ساعتك أو من حين لآخر تقلّب في هاتفك، أو قد تضحك في موقف لا يستحقّ الضحك أو بطريقة توحى إليه باستهزائك به، ونحو ذلك.

3. جسور الوصال بين جمالية الفعل النصحي وفعالية النشاط الحواري:

نروم في هذه المساحة البحثية الضيقة، كشف أهم الجسور العلمية التي تربط بين ضفتي العملية النصحية وهما: الفعل النصحي الهادف؛ القائم على أسس علمية متينة، ووسيلته الأساسية؛ التي هي النشاط الحواري. فقيادة العملية النصحية على نسق متكامل وفي جو متفاعل وحركية نقاشية هادفة وفاعلة، رهين إلى حدّ بعيد، بمدى نجاعة الوسيلة، وملاءمة آلياتها، وحسن استثمار ظرفيتها ومقوماتها. لذلك فهناك خطوط دقيقة تربط بينهما، فتضفي على مجريات النشاط الفكري برقته طابع الجمالية الحوارية والنصيحة المثالية. وعليه، فإنّ من أهمّ المرتكزات التي تقوى على ذلك، ما نسوق موجزه في النقاط الموالية:

- يلعب حضور البدئية طيلة مسار عملية النصيحة دورا فاعلا في ضمان السير الثابت نحو الحقيقة العلمية، والانتقال السليم من محطة فكرية إلى أخرى أو إلى ما يليها لإتمام بنيان بيت الأهداف العامة. فمن امتاز بسرعة البدئية، أمكنه أن يتجاوب مع مجريات الحوار بما ينطوي عليه من أفكار تُطرح زمنه كاستجابة لظرفية آنية أو فكرة وليدة الحدث الحواري، تكون ذات فائدة، وتخدمه بشكل كبير، أو قد تُشكّل المخرج الوحيد من أزمة كانت على وشك أن تعصف بروح الحوار إن لم يتمّ معالجتها على عجل.

وهذا ربما ما يصطلح عليه باللحظات الحرجة في المحادثات، التي يكون أحد أطراف الحوار سببا فيها، والتي تتطلب حضور الثقة في النفس لتجاوزها بسلام وديمومة استحضار الذكاء وإبقاء الذهن متقدما. ماجيو (2009، ص.81)

- القدرة على تقمّص شخصية الحدث؛ ونقصد بذلك أنّ الناصح الناجح هو من يستطيع أن يعيش واقع الأزمة أو مشكلة الحوار، فبقدر ما يستوعب فصوله ويكون مدججا بالأسلحة الفكرية والاقناعية من الواقع والنص، وكل ما يعين به العقل، بقدر ما يُحسّ المنصوح أنّه بين يدي طبيب يحمل همّ شفائه، فيُسلم إليه عقله لقطع دابر الداء.

- القدرة على الفصل بين فكرة النقاش وطرفه (الناصر)، بحيث كلّما أدرك المنصوح أنّه قد أخطأ في شيء أو فكرة لكنه مُصيب في الكثير وأنّ ناصحة على صواب في ذلك الموضوع لكنه ليس معصوما من الخطأ، فتح أبواب التقبّل على مصراعها، وكانت نقاط حواراته تركز على الدفاع عن الفكرة وليس عن ذاته، فتكون عندئذ مقاومته علمية وليست تعصبا.

- القدرة على اشعار المنصوح بأن النصيحة تخدم الطرفين وأن نفعها يشملهما كليهما، ولما لا يُلطّف الناصح من جو النصيحة بذكر أنه هو ما كان على دراية بتلك الفكرة أو المعلومة أو أنه هو الآخر كان يعتقد ما يعتقده منصوحه ويرى ما يراه، من قبيل قوله: "وأنا كنت أرى أنّ الأمر على ذلك الحال وأنّ تلك الفكرة هي الأصح حتى هداني الناصحون إلى نور الحقيقة العلمية، فكان من باب تمام الفائدة أن تعمّ على أصدقائي وأحبائي والمقربين إليّ، فرأيت أن أهدي إليك تلك الفكرة الصائبة مغلفة بغلاف النصيحة الصادقة. وحتى نرفع من سقيفة الوضوح أكثر، نستعين بما أورده ماجيو (2009، ص. 22) الذي دعا للاستخدام المتوازن بين ضميري المتكلم والمخاطب "أنا وأنت"، في مسار الحوار الهادف، بل وحثّ أكثر على تغليب ضمير أنت في خدمة نوع من الحوار، أو نقول حسب ما يقتضيه الموقف ولون الحوار أو هدفه، كما دعا إلى اللجوء لاستخدام الضمير "نحن" أكثر من "أنا وأنت".

الخاتمة:

على ضوء هذا المسار البحثي في فنون النصيحة ضمن المضمار العلمي-النخبوي، وطرائق إسدائها، وآليات قيادة جيّدة لسفينتها إلى شاطئ الأمان أو نحو الهدف والغاية الرئيسة من وراء ذلك الجهد النصحي وفصول الحوار التي تخلّلتها، كان من أبرز ما علق في مخيلتنا كحصار لما تمّ طريقه:

- كلّما كان الناصح والمُقدّم على نصيحة غيره وإصلاح أفكارهم وتغيير مواقفهم المعهودة تجاه فكرة أو رؤية، مُلمّاً بآليات النصح، متحكّماً في طرائقه، مدركاً لأساليبه، كلما حاز حظاً وافراً في الدنو من غايته أو قدرة على ملامستها.

- إنّ من ملامح قيادة مسار حوار ناجح: أن ينطلق انطلاقاً سليمة، يشعر خلالها المنصوح بالراحة والاطمئنان لمحاوِّره ويُقبل عليه، وكذا طريقة انبثاقها؛ بحيث يخرج الناصح من مضمارها وقد ترك انطباعاتاً إيجابية في منصوحه من حيث الفكرة والأداء.

- من ثمار نجاح عملية النصيحة ومعرفة أثرها البليغ في نفسية المنصوح، أن يجعل هذا الأخير يعرض نفسه على القصص النصحي بإرادته، باحثاً عن الحقيقة العلمية وعن الفكرة الصائبة، ويبذل جهوداً مضيئة في تحصيلها والبحث عمّن يسديها إليه على ذات الطريقة.

- اختيار الكلمات الطيبة والألفاظ المناسبة والأوقات الأنسب، هي قوى عظيمة في انجاح الحوار وإسداء النصيحة.

- من أيسر السبل للوصول إلى قلب المنصوح واستمالته لسماع النصيحة وتقبّلها والإقدام إليها، أن يشعر أنّ ناصحه يبحث فيه عن مواطن قوة فكره وسداد رأيه، وليس البحث عن نقاط الضعف والوهن الفكري، وكذا الشعور بأنّ النصيحة تعالج الفكرة وليس صاحبها.

- إنَّ من أصعب فصول النصيح أن تحتضن مجرياتها شخصيتين علميتين، أو تلك التي تدور رحاها بين طرفين يحوزان من الثقافة قدرا معتبرا، لأنَّهما في الغالب يتحكَّمان إلى حدٍّ بعيد في آليات الجدل والمقاومة والدفاع عن الفكرة، فبإمكان الطرف المنصوح أن يستमित دفاعا عن رأيه بالأدلة العقلية عساه يظفر باستسلام ناصحة مهزوما مخذولا.
- يحتل تحري الحقيقة واعتلاء عرشها، المكانة الأسوأ في مسار حوار نصحي، مهما علا شأن الناصح أو المنصوح علما وفكرا وثقافة.
- أما من التوصيات التي نردفها بمادة هذه الخاتمة فمنها:
- كتوصية نرى من الأهمية الإشارة إليها في هذا المضممار البحثي قولنا للناصح: اجتهد لتُسمع منصوحك ما يرضيه في مسار عملية النصيح، لتظفر في نهاية المطاف بما يرضيك أو يخدم فكرة الحوار، ويوصل لهدفها والمبتغى منها.
- على الناصح أن يصدق نفسه قبل أن يصدق غيره أو منصوحه.
- الظفر بالنصيحة الخالدة يقوم على عرش الموازنة المحكمة والدقيقة بين أهمية الفكرة المطروحة محل النصيح على تفاوت قوة علميتها وقيمتها الثقافية وحضورها في الحقل العلمي ومكانتها فيه، وصاحبها الشخص المنصوح على تباين درجته العلمية وكفاءاته وشهاداته العلمية، فلكل مقامه، ولا ينبغي عليه أن يسعى لتحقيق غاية على حساب أخرى.
- على الناصح أن يمدح الشخص المنصوح و ليس مديح أفعاله أو فكرته، ذلك أنَّ من أراد أن يُغيّر فكرة خاطئة، كان لزاما عليه أن يُغيّر نظرة المنصوح إليه، على كونه صديق وليس مُحاسِب، ومحِب للخير العلمي وليس مُراقِب.

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن الهيثم، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1426هـ/ 2005م.
3. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، الفوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1407هـ/ 1987م.
4. ابن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/ 2003م.
5. البخاري محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، شرح وتحقيق وتصحيح، محب الدين الخطيب، تبويب، محمد فؤاد عبد الباقي، مراجعة ونشر وإخراج، قصي الدين الخطيب، ج1، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، مصر، 1400هـ/ 1979م.
6. الدهلوي، ولي الله، الانصاف في بيان أسباب الاختلاف، مراجعة وتعليق، عبد الفتاح أبو غدة، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط3، 1406هـ/ 1986م.
7. الشثري سعد بن ناصر، أدب الحوار، تعليق، عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1427هـ/ 2006م.
8. الفاسي أبو العباس شهاب الدين، النصيحة الكافية، ضبط وتحقيق وإخراج وتعليق، قيس بن محمد آل الشيخ مبارك، مكتبة الامام الشافعي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1414هـ/ 1993م.
9. النووي أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، مطبوعات ميموني للنشر والتوزيع، الجزائر.
10. النيسابوري مسلم أبو الحسن، صحيح مسلم المسمى الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أشرف، أبو قتيبة محمد الفارابي، مج2، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1427هـ/ 2006م.
11. خليفة، محمد حسن أحمد، الحوار منهجا وثقافة، دار الكتب القطرية، الدوحة، قطر، 1429هـ/ 2008م.

12. ذيب أحمد، التفكير الفقهي المعاصر بين الوحي الخالص واكراهات التاريخ دراسة تحليلية نقدية لمقولة الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، 2017.
13. زيوان فاتح، أثر المرجعية الفكرية في تحليل الخطاب اللغوي من القرن الهجري الثاني حتى القرن الخامس دراسة في المتون، كتب المجلة العربية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1421هـ/2000م.
14. عماري يس، "مشكلة حرية الانسان عند أبي بركات البغدادي"، مجلة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، عدد 28 يوليو، 2017.
15. عمر هاشم أحمد، الاعتدال في الاسلام، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، القاهرة.
16. كارنيغي داييل، فن التعامل مع الناس، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، مصر، 2010.
17. ماجيو روزالي، فن الحوار والحديث إلى أي شخص (المهارات الانسانية اللازمة للنجاح في أي موقف)، ط2، مكتبة جرير، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2009.